أبعاد الوجودية الملحدة في مسرح جون بول سارتر
(قراءة سيكولوجية في مسرحية : الشيطان و الإله الطيب)

ط/د.سليماني عبد العزيز
جامعة الجزائر

ملخص :

(جوتز) ذلك العسكري المغرور و الابن الغير الشرعي، يحاول أن ينتقم من الجميع من خلال وحشيته الكبيرة في تدمير المدن، و لكنه في لحظة ما يذهب بهذا التحدي بعيدا إلى درجة أن يدخل في تحد مع الله نفسه. إنه و من خلال شخصيته المريضة بسبب ما لقيه من تربية مشوهة و مغشوشة، يسعى إلى أن يتحرر من سلطة الآخرين و من سلطة الله نفسه، كل ذلك ليستطيع امتلاك ذاته و وجوده الأصيل، و ينجح في الأخير رغم أن هذا النجاح هو الفشل في حد ذاته، و لكنه من وجهة نظر (جوتز) نجاح لأنه ببساطة كان موقفا حرا و أصيلا.

الكلمات المفتاحية : الشيطان و الإله الطيب – جان بول سارتر – الإلحاد الوجودي – المسرح الوجودي .

Abstract:

(Goetz) that arrogant military and illegitimate son, trying to take revenge on everyone through his great brutality in the destruction of cities, but at one moment goes this challenge so far as to enter into a challenge with God himself. He and his sick personality because of the distorted and adulterated education he seeks to be freed from the authority of others and from the authority of God Himself, all of which can possess his own authentic existence and succeed in the latter, although this success is a failure in itself , But from Goetz's point of view, it was a success because it was simply a free and authentic attitude.

Keywords : The devil and the Good lord - Jean Paul Sartre - Existential atheism - Existential theater.

نحن أمام مسرحية درامية كتبها سارتر العام 1951، وأعطاها هذا العنوان الملفت "الشيطان والإله الطيب" وبطلها هو القائد الحربي (جوتز)، و هو قائد جيش من المرتزقة، قاتل متوحش، وناهب للمدن، وتطالعنا المسرحية وسط جيش (جوتز) وهو يحاصر مدينة (وورمس) واليأس قد خيم على المدينة التي تشبه المقبرة.

تحاول المسرحية في عمومها أن تعالج مشكلة الشر في العالم، أو الصراع بين مفهومي الشر والخير، ويرسم المشهد الأول من المسرحية توصيفا رائعا لمشكلة الشر في العالم، حيث يجري حوار بين الكاهن (هنريك) و امرأة فقدت وليدها بسبب المجاعة التي سببها الحصار، لكن الكاهن يرفض التحاور لأنه مشغول ويحاول الخروج من المدينة لجلب المساعدة. المرأة تحاول فهم لماذا مات وليدها، ولكن الكاهن لا يدري :

" المرأة : ومن يشرح لي إذن إن لم تستطع أنت؟ لو تركت نفسي أموت الآن أيكون ذلك شراً؟.

هنريك : نعم. شر فظيع...إن شيئا لا يحدث إلا بإذن من الله، والله هو الطيب بذاته، ولذلك كان كل ما يحدث هو الأفضل.

المرأة : أنا لا أفهم.

هنريك : إن الله يعلم أكثر مما تعلمين. وما يبدو شرا هو خير بعينه لأنه يزن نتائجه جميعا.

المرأة : أتستطيع أن تفهم ذلك أنت؟

هنرييك : لا ، لا، أنا لا أفهم أبدا، أنا لا أفهم شيئا، أنا لا أقدر، بل ولا أريد أن أفهم، يجب أن نؤمن، أن نؤمن، أن نؤمن "[1].

إن (هنرييك) لا يفهم، أو بالأحرى لا يريد أن يفهم، لا يريد أن يفسد إيمانه ومواثيقه تجاه الكنيسة، إنه لا يفهم أن حزن المرأة أكبر دليل على فشل الخير الإلهي في تجميل الشر و إدخاله تحت القدرة الكلية له، ولن يفهم أن ألمها أكبر دليل على عدم وجود إله، حيث وأن الحزن إنساني فلأن الشر إنساني أيضا. والكاهن هنا ملتزم بالتعاليم الكنسية، التي تكرس المفهوم الديني للشر، حيث ليس الشر سوى وجه من أوجه الخير، ولكن المرأة ما تلبث أن تعيد السؤال ولكن الآن على (ناستي) الذي يمر من أمامهما، وتكون إجابته مرضية أكثر للمرأة : " لقد مات ابنك لأن التجار الأغنياء في مدينتنا ثاروا ضد رئيس الأساقفة، سيدهم الشديد الغنى. عندما يتحارب الأغنياء، فالفقراء هم الذين يموتون "[2]، وهذا الجواب يرضي المرأة ويريحها لأنها كانت تعتقد أن الله نفسه أمر بقتل ولدها ورضي بذلك، وهذا ما جلب لها كربا عظيما. أما إدراكها أن البشر هم سبب الشر والخراب وموت ابنها فذلك ما عزّاها قليلا، وأنقذ صورة الإله الرحيم في نفسها، ولا يفوتنا هنا تعريض سارتر بالوجه المادي البشع الذي كان يختبئ وراءه رجال الدين في العصور الوسطى وفي كل وقت، وعلينا هنا أن نعلم أن رئيس الأساقفة محاصر أيضا داخل المدينة من قبل أهلها، ولذلك فهو يطلب مساعدة (جوتز) ضد أهل (وورمس).

نعثر هنا أيضا على إشارة مهمة جدا من الكاهن (هنرييك) حين يعترض على جواب (ناستي) فيقول له : " ناستي، أرجوك، اخرس، يا لشقاء الذين تحدث الفضيحة بواسطتهم"[3]، إذن يصف قضية نسبة الشر إلى البشر واكتشاف المصدر البشري للشر بالفضيحة، ولكن فضيحة لمن؟ الأمر واضح، إنها فضيحة للكنيسة التي ضلّت تبشر بالخير الإلهي الكلي، وفي الحقيقة أنها فضيحة للإله نفسه، الإله الكلي القدرة، حيث يستقل البشر عنه ويصبحوا هم خالقي الشر ومصدره.

كل هذا يعرفه (هنرييك) ولكن لا يبوح به ويضل متمسكا بالإيمان، بالله المسيحي رغم أنه لم يستطع محاجّة (ناستي)، لم يستطع مقاطعته لأن المرأة البائسة بدت وهي تستمع لرأي (ناستي) أقل بؤسا، وأقل حزنا. إن (هنرييك) يدرك في عميق نفسه أن الشر صفة بشرية خالصة، ولكنه لا يستطيع تجاوز فكرة الله الكلي القدرة، الكلي السيطرة، فكرة أن كل شيء بأمر الله. حتى موت طفل.

إن المسرحية في أفكارها الكبرى تعتمد على شخصيتين مهمتين، أولهما (هنرييك) الذي بيّنا موقفه الديني واضطرابه أمام التناقض الذي يواجه إيمانه في الله، ومع ذلك يضل ابنا للكنيسة، أما الشخصية الثانية فهي القائد (جوتز). محارب قاسي القلب و مجرم وضيع، و(جونز) بوصفه ابن زنا ومنبوذا بحسب المبادئ الإقطاعية، فإنه يتصرف وفق نظرة الناس إليه، هم يرونه ابن زنا ومجرما، وهو يقدم لهم ما يحبوا أن يروه، النهب والقتل، إنه يتقبل نظام الوراثة الإقطاعي، أي أنه لا يحق له أن يملك بصفته ابنا غير شرعي، ولذلك هو نقص، لا شيء، وحيث أن " في المخطط اللاهوتي المتفائل الذي تتقبله الطبقات الحاكمة، الشر ليس إلا نقصا والخير هو الامتلاء"[4]، فيختار(جوتز) أن يكون الشرير، بل مصدر الشر، وراح يقود جيوشه إلى

المذابح ومحاصرة المدن والفتك بساكنيها ليكون الشرير من أجل الشر فقط، ليحقق ذاته، ليحقق ما وجد نفسه عليه، ابن زنا ولقيطا ومنبوذا لا يُتوقع منه إلا كل شر. و يكاد هذا الشعور بالشر وبخلق الشر يُسكره، إنه يحس نفسه في مرتبة الله حيث أنه " لا يستطيع أن يحاور إلا الله، ولا يقبل منافسا إلا هو"[5]، إن (جوتز) لا يهتم بالواقع المجسد لأفعاله التدميرية، ولا بانعكاساتها الاجتماعية، إنه يصعّد الموقف إلى المجال الميتافيزيقي، إنه يحاول الارتفاع إلى مجال الله، يحاول جعل الله مُحرَجاً بأن يفعل الشر الذي هو ضد الله/الخيّر، هو يحاول الاستحواذ على الشر الميتافيزيقي من خلال الشر الطبيعي، وحين تسأله (كاترين) : ولم تفعل الشر؟، فإنه يجيبها :

" لأن الخير قد تم فعله.

كاترين : ومن الذي فعله؟

جوتز : الله الأب. أما أنا فأخترع "[6]، و(جوتز) هنا ملحد وقح نوعا ما، جريء، لأنه يحاول مشابهة الله. يحاول بكبرياء شيطاني إحراج الله، كأنه اكتشف أن الله لا يستطيع أن يفعل له شيئا، لا يستطيع أن يعاقبه في العالم. إن كبرياءه الشيطاني قائم على التحدي، وليس التبجح فقط. لا يستطيع أن يلحد إلا بوجود إله كهذا ينسبون إليه كل مظاهر العظمة والقدرة والسيطرة، إله جدير بأن يلحد به، وإلاّ لن يكون لهذا الإلحاد أي طعم بالنسبة لـ(جوتز) فيقول : " إن الله يراني أيها الكاهن، وهو يعلم أنني قتلت أخي، ويسيل قلبه دما لذلك. نعم لقد قتلته يا رب وما تستطيع أن تفعل بي؟. لقد ارتكبت أشنع جريمة ولا يستطيع رب العدالة أن يجازيني ..."[7].

إن (جوتز) بصفته ابن زنا، و كذلك لما كان عن طريق أمه سليل عائلة هيدنستام القوية، فقد صدم بالنبذ منها لأنه ولد من أب مجهول، يقول : " لقد أسلمت أمي جسدها إلى وضيع ما، فتكونت من نصفين لا يلتصقان معا، كل واحد منهما يرعب الآخر"[8]، و(جوتز) هنا يجسد التنافر السيكولوجي الداخلي، و هي حالة مرعبة، تتجسد في محاولته التطابق و الانسجام الداخلي الفاشلة دائما، أي محاولة أن يكون دائما نفسه. و يختار الشر أخيرا. وليس اختيار الشر هنا عشوائيا، بل لأن (جوتز) أيضا في الحقيقة لا يملك كينونته، لقد أعطيت له رغما عنه. لقد غدا مجرما و مخادعا لأنه ولد مزورا، ولد في خدعة، لأن العالم رفضه فهو يرفض نفسه دائما ويحاول تحقيق ذاته كل مرة من خلال شر أكثر، في تحدّ أكثر لله. لقد أعطي الحنان المغشوش منذ طفولته، و ذلك" أنهم لم يقبلوه إلا لكي يشعروه في كل لحظة بأنه مبعد "[9]، لا يساوي شيئاَ بدونهم. نفاية. ورغم ذلك تنازلوا وعطفوا عليه، وهذه التربية الزائفة التي يتلقاها الابن الغير الشرعي خلقت هذا المسخ، النفس المشوهة، المزورة هي الأخرى، خلقت (جوتز) الذي يحاول في كل لحظة امتلاك كينونته بكل الوسائل والطرق، فهو نصف أرستقراطي ونصف وضيع، لا يستطيع الاستيلاء على نفسه أبدا. إنه التمثيل الأكثر ضجيجا للتلاشي الدائم الذي يرهق الكينونة لذاتها، وحيث أن هذا العالم(الإقطاعي) ليس فيه مكان للأبناء غير الشرعيين، فإن (جوتز) يقتل أخاه (كونراد) ليستحق لقب (قاتل أخيه) بعد أن كان لا يملك شيئا " لقد صنعت نفسي بنفسي، لقد كنت ابن زنى منذ ولادتي، ولكن لقب قاتل أخيه الجميل فإني لا أدين به إلا لفضائلي "[10]، ويمثل هذا الفعل اختياره الأول للشر، ناتجا عن رفض العالم له، رفض وجوده، فهو الآن

يحاول طعن هذا العالم ومبادئه الأرستقراطية، فيقتل أخاه، ويقتله أيضا لأنه شرعي، وكذلك هناك شعور المهانة من الهبات التي أعطيت له منذ طفولته، الكرم والحنان المغشوش الذي أشعره في كل لحظة بالذل حيث أشعروه أيضا أنه لا يستحق هذا الكرم، لقد كانوا يتمتعون بذواتهم على حسابه، التمتع بصفة أنهم (كرماء، عطوفون) بواسطته لا حبا فيه ولا شفقة عليه. لذلك وصل (جوتز) إلى مرحلة لا يحتمل فيها أي حب تجاهه، فهو يقول لـ(كاترين) : " لو أحببتني فإنك أنت التي سوف تحصلين على السرور كله...لا أريد أن يستفيدوا مني بعد الآن "[11]. إن (جوتز) يصل بهذا الشعور إلى مرحلة لا يستطيع فيها أن يتحمل منحه أي شيء ولا أن يهب نفسه لأي أحد، إنه في حاجة إلى الاستيلاء على الكائنات وعلى الأشياء بالقوة حتى يحقق ذاته، إن رفض أي منحة يصل في الأخير إلى أن يرفض غفران الله، ويحاول في كل شر يرتكبه أن يتحدى الله نفسه، أن يغضبه، حتى لا يدع لإله المحبة المسيحي أي ثغرة للغفران " إنه لن يغفر لي على الرغم مني "[12] .

إن (جوتز) لا يعاني من إبعاد أسرته له فقط، بل هو يقاسي نفور العالم منه أيضا، وهو يقول مخاطبا (هنرييك) : " فمنذ طفولتي أنظر إلى العالم من ثقب المفتاح، إن هذا العالم بيضة جميلة وصغيرة، ممتلئة تماما حيث يحتل كل إنسان المكان المعين له، ولكن أستطيع أن أؤكد لك أننا لسنا بداخلها. نحن خارجها. أُرفض العالم الذي لا يريدك، افعل الشر ولسوف ترى كيف تشعر بأنك خفيف"[13]، وهنا تتجلى ملامح العالم الممتلئ، الغاص بنفسه، المنغلق على نفسه من خلال قواعده و قوانينه الاجتماعية و التاريخية، الذي ليس فيه مكان لأمثال (جوتز)، ويطلب من (هنرييك) أن يفعل الشر لأن ذلك الرد الأمثل على هذا العالم، الرد على صفاقة العالم ونكرانه، يطلب منه أن يكون/يفعل/يحقق ذاته، و الشعور بالخفة هنا من عوامل الفعل والاختيار والمسؤولية. القرار هو الهروب من التلاشي والاضطراب المرعب. و(جوتز) حين يوجه إلى (هنرييك) كلامه هذا فلكي يبصّره بحاله هو أيضا. إن (هنرييك) أيضا ابن زنى، لا شرعي، واللاشرعي هنا ليس بالمولد فقط، إنها ليست حالة مدنية دائما[14]، حيث أن (هنرييك) قسّيس يحب الفقراء ويعطف عليهم، ولكنه في نفس الوقت ابن لكنيسة لا مكان للفقراء فيها، فهو يأتي إلى معسكر جونز ليسلم مفاتيح ممر سري تحت المدينة، حيث كلفه رئيس الأساقفة المُحاصَر أن يسلم المفتاح لـ(جوتز) حتى ينقذه من حصار أهل المدينة لأبرشيته. إنه من جهة خائن لأهل المدينة وسيتسبب في سفك دمائهم كلهم، وفي نفس الوقت جاء لينقذ رئيس الأساقفة و عدد كبير من القساوسة والكهنة المحاصرين أيضا مع رئيسهم، وهذا سبب وقوفه أمام (جوتز) في هذه اللحظات. لذلك يحييه (جوتز) بحرارة لأنه يحب الخونة مثله، يحب اللاشرعيين مثله، الذين لا يملكون سوى حريتهم : " سلاما أيها الأخ الصغير، سلاما في لا شرعيتنا، لأنك أنت أيضا ابن زنى، لقد ضاجع الإكليروس البؤس لكي يلدك... إن نصف قسيس ونصف فقير لا يساويان أبدا إنسانا كاملا، إننا لسنا شيئا ولا نملك شيئا، إن كل الأولاد الشرعيين يستطيعون التمتع بالأرض دون ثمن، ولكن ليس أنا وأنت "[15].

إن سارتر يضع أغلب شخصياته دائما بهذا الشكل : أبناء زنى. ذلك لأنه متعاطف مع هؤلاء، فـ(كين) بطل مسرحية الفوضى والعبقرية 1954 لقيط إنجليزي، و(هوجو) بطل مسرحية الأيدي القذرة 1948 شاب يشبه (هنرييك)، حيث نصفه برجوازي، والنصف الآخر شيوعي، فلا يستطيع هو الآخر أيضا الاستيلاء على

نفسه، و(أورست) أيضا بطل مسرحية الذباب 1943، فهو من (أرغوس) وليس من (أرغوس)، إنه إنسان يجهله الآخرون " إنه ينزلق عبثا على سطح عالم لا يستطيع التمتع به "[16]. إنهم أيتام مثله، ولكنهم أيتام من نوع آخر، (إنهم أيتام مزيفون)، لذلك حين يصنع سارتر شخصية مثل (جوتز) فإنه يرى فيه ابن الزنا و البطل الحقيقي[17]. ومع ذلك يشترك كل هؤلاء في الإلحاد المؤلم، الوحدة الوجودية والهجر القاسي، ولكن (جوتز) أشجعهم، و سارتر حين يحلل التمزق في الشعور الذي تعرفه شخصيات مسرحياته، فإن بعضها تختار الشلل وسوء النية للتخلص من القلق، لامتلاك عالم الناس، لامتلاك رأي (ما) في أنفسهم بواسطة الناس. إنهم يقعون فريسة الآخر آخر الأمر. أما (جوتز) فإنه يتوجه رأسا إلى الله، لكي تدركه أكثر النظرات إطلاقا (من المطلق)، الله نفسه يجب أن يقلقه ويخيفه، لا يرضى غير الله أن يهتم به، لكي يجعله يضطرب في عليائه ويحس نفسه ضد (جوتز)، عدوه، لذلك لا يجد إلا أن يحرق المدينة لا لشيء إلا لأن ذلك ضد رغبة الله فيقول لـ(ناستي) :

" ما شأني والبشر؟ إن الله يسمعني و إني لأخرق أذنيه وفي هذا كفايتي. فالله هو العدو الوحيد الذي تليق بي خصومته. ثلاثة لها وجود : الله وأنا والأشباح، سأصلب الله الليلة، عليك وعلى عشرين ألف إنسان، ذلك أن آلامه لا نهائية وتجعل لا نهائيا من يجعله يتألم. إن هذه المدينة سوف تشتعل. الله يعرف ذلك. وهو في هذه اللحظة خائف. إني أشعر بذلك. إني أشعر بنظراته علي يدي، وأشعر بأنفاسه على شعري. وملائكته تبكي..... إنه يقول لنفسه: ((قد لا يجرؤ جوتز)) كما لو كان إنسانا عاديا. ابكوا .ابكوا أيتها الملائكة. سوف أجرؤ.

بعد قليل سوف أمشي في خوفه وغضبه. سوف تشتعل : إن روح الرب هي رواق المرايا. إن النار سوف تنعكس في ملايين المرايا. وحينئذ سوف أعرف أنني مسخ طاهر تماما "[18].

إن سارتر حين يتعاطف مع أبناء الزنا هؤلاء، فلأنه هو أيضا كان ابن زنى مزيفا (يتيم)، فحين توفي والده (جان بابتيست) المهندس البحري في الهند الشرقية بسبب الحمى، حينئذ لجأت الأرملة الشابة (آن ماري شفيتزر) إلى منزل والديها لتتزوج مرة أخرى بعد عشر سنوات. وهناك تولّى جدّه تربيته وتعليمه، وكان جده يحبه لحد العبادة، ولكن سارتر لا يذكر من هذا الحنان الزائد والشفقة المغشوشة سوى تزمت جده الديني ومحافظته الورعة في التعليم، و يصرح : " كان جدي يعبد كرمه في شخصي "[19]. وكذلك وضعية سارتر التي جعلته دائما محل إحسان، لأنه لم يكن يملك شيئا، هذه الوضعية التي انعكست عليه وجوديا رغم ماديتها، هذه الوضعية جعلته لا شرعيا أيضا، غير منتمي لأنه لا يملك حتى شعوره فيقول : " لم أعرف أبدا الإحساس بالملكية، لم أكن أملك شيئا قط، بما أنني عشت أولا عند جدي وجدتي، وبعد زواج أمي، كذلك لم أستطع أن أشعر أنني في بيتي. إن الآخرين دائما كانوا يعطونني ما أحتاج إليه "[20]. لقد كان هذا الواقع يجعل شخصية (جوتز) قريبة جدا منه، شريكه في اللاشرعية، شبيهه ولكن العنيف بخلاف سارتر، ولذلك يشارك سارتر شخصياته المسرحية وبالأخص (جوتز) هذا الموقف الديني، الرفض للما وراءي، واستحضاره الدائم كآخر، حيث تحقق الكينونة لذاتها به عن طريق الضدية معه، في وجودها عن طريق النفي/السلب.

عندما نعود إلى المسرحية، نجد (هنرييك) الذي جاء ليسام مفاتيح الباب السري للمدينة لـ(جوتز) يتراجع وللحظة يختار أهل المدينة على رئيس الأساقفة والكهنة. لم يعد يعلم إرادة الله من إرادته، لقد اختلطت عليه الأمور، ولكن (جوتز) - الشيطان أو رسول الشيطان وقديسه – يحاول التمتع بهذه الحيرة التي انقضّت فجأة على (هنرييك)، يجد فرصة ليضع الكاهن في تجربة، إنه يتقمص دور الله ويشرح لـ(هنرييك) هذه اللحظة المصيرية. يخبره أنه إن سكت الليلة ولم يسلم المدينة فسيموت الكهنة على يد الفقراء/السكان، وخلال شهور سيقضي أهل المدينة بسبب الجوع والحصار وأيديهم ملطخة بدماء الكهنة ويذهبون للجحيم.، لذلك يعرض عليه تسليم المدينة، لأن الفقراء الذين سيموتون بعد الاقتحام سيموتون نظيفي الأيدي وسيلتقي الجميع في السماء، ويصرخ (جوتز) به : " هذه الليلة لديك سلطة على حياة أو موت عشرين ألف.

هنرييك : لا أريد هذه السلطة. إنها آتية من الشيطان.

جوتز : أنت لا تريدها ولكنها بين يديك (يهرب هنرييك راكضا) هيه لا، ماذا تفعل؟ إذا فررت فقد عزمت.

هنرييك : نفس الشيء، إن المختار إنسان تسمره إصبع الله إلى الحائط (بعد فترة) لماذا أنا يا رب؟.

جوتز : هي ذي ساعة النزع. دعني أساعدك..".

وهنا يبدأ(هنرييك) باكتشاف الحقيقة، إن الله هنا غائب عن هذا الاختيار، إنه في الحقيقة يكره الفقراء وهو الذي كان يظن أنه يحبهم، حيث أنه لم يسلمهم إلا وهو يكرههم، إنه يساند الكهنة في عمقه، الحقيقة " الحقيقة أنني أنا اخترت نفسي ...ألا تعلم أني أكره الفقراء؟ "[21]، لقد اكتشف (هنرييت) أنه يفعل الشر وليس الشر الذي هو أحد أوجه الخير. إنه هو الذي يعمل الشر والخير وليس الله، وفي الأخير يعطي المفاتيح لـ(جوتز) .

لكن المسرحية تفاجئنا بتغيير مذهل. إن (جوتز) يتريث قليلا في الهجوم، إنه ينتظر أمرا ما، إشارة، إنه ينتظر إشارة ما من الله نفسه، ألن يتحرك الله ليوقف هذه الكارثة ؟. و " وفي الحقيقة (جوتز) لا يؤمن لا بإله ولا بشيطان، إنه يحلم بالمطلق، إنه يريد أن يفعل الشر إطلاقا أو أن يفعل الخير إطلاقا لكي يكون هو نفسه الله أو الشيطان "[22]، وعليه نجد هنا إغراء المطلق الذي يسيطر على الشخصية السارترية دائما، لأنها هي النقص والكمال في نفس الوقت، السلب والإيجاب دائما.

حين يرجع (جوتز) لخيمته، يجد (ناستي) ينتظره هو الآخر ليحاول كسب تحالف (جوتز) مع الفلاحين، ولكي يقنعه بالانضمام للفلاحين فإنه يحاول التصغير من فاعلية الشر الذي يصنعه (جوتز)، يحاول أن يحطم فكرة الشر المطلق الذي يؤمله (جوتز) " إنك تثير الفوضى، والفوضى خير خادم للّنظام القائم... إنك تدور في حلقة مفرغة ولا تؤذي إلا نفسك "[23]، وكذلك فإن هذا الشر لا يحمل أي حكمة، بحيث يكون شرا ميتافيزيقيا يؤذي الجميع أو على الأقل ينفع آخرين، إنه شر وحيد منقطع، والحل عند (ناستي) هو أن يصبح (جوتز) سوط الله وأداته الخيرة. وهذا الاقتراح هو في الحقيقة اقتراح عاطفي محض، بحيث أن (ناستي) يريد أن ينقذ الفلاحين من المذبحة لأنه يعرف إجرام (جوتز)، ولكنه من جهة أخرى يجهل العقلية الكامنة وراء هذا الرجل. إن (جوتز) لا يهمه النبلاء ولا الفقراء، إنه غير معني بهذه الصراعات الطبقية والإيديولوجية، ولا يهمه أن يؤذي نفسه " لأنه كيف يمكن لنا التأكد من أننا نفعل الشر إن لم نكن نشعر بنتائجه في أنفسنا

"[24]. إن (جوتز) يلاحق المطلق، إنه يهرب من النفور الذي يمزق ذاته، إنه يطمح للسكينة والثبات –حتى ولو في فعل الشر . الشر المطلق .الشر للشر. لذلك يرى في الانحياز للفقراء ومحاربة النبلاء والكنيسة شرا ناقصا، شر فيه خير، أو لتحقيق الخير. إذن هو خير، و(جوتز) لا يستهويه الخير الآن، لأنه لا يعتقد بهذه المعضلة الأخلاقية من الأصل، إنه يبحث عن كل ما يعاند به الإله المسيحي. هذا الإله الذي يبعث رجاله (هنرييك) و(ناستي) مع بعض، ليسلم كل منهما الآخر لـ(جوتز)، ليفعلا الخير كل على طريقته، و لأن الله مع كل منهما.

إن (جوتز) يحس أن الله نفسه يحاوره الآن ويحاول التحالف معه، و التأثير عليه، ولا يستطيع (جوتز) أن يفوت فرصه مثل هذه : الله يتنازل، الله يتعامل مع (جوتز) شخصيا : " ...هذا المفتاح، أطلبت منه هذا المفتاح ؟، لكنه –الله- سخر لي أحد كهنته حتى يضعه بيدي...". إن (جوتز) يرى كيف أن الله نفسه يخلق الفرص، كيف أنه يختبئ وراء (هنرييك) ولا يظهر علنا، حتى يستطيع أن يدينه، أن ينكره ، يقول : " إنه يراودني بلطف...دون أن يفضح نفسه، حتى إذا أذعنت كان له الحق في أن ينكرني..."[25]، وهنا سارتر يحاول الكشف عن اللعبة الأخلاقية التي يعتمدها إله الفكر الديني، حيث يصور الفكر الأخلاقي الديني الله الخيّر، مصدر الخير والذي لا يفعل إلا الخير، وفي نفس الوقت لا يستطيع الأشرار أن ينسبوا شرهم إلى أنفسهم - لأن الله هو كل شيء والبشر مجرد أدوات لتحقيق خطته - وفي نفس الوقت هم أعداء الله الأشرار الذين يفعلون عكس الخير الإلهي. إن الله هنا لا يريد غير الخير، ولكنه الخالق لأدوات الشر وطرقه وحتى الرغبة في الشر لدى البشر. إنه خالق الشر لدى البشر وفي نفس الوقت يستطيع التنصل بسهولة من أفعالهم - التي لا تخرج عن إرادته طبعا -، ويستطيع محاسبتهم عليها وإدانتهم ورميهم في الجحيم.

يرفض (جوتز) عمل الخير، لأنه يريد عمل الشر، ولكن سبب ذلك فقط هو معاكسة (ناستي) وكذلك (هنرييك) ومن ورائهما الإرادة الإلهية. إنه يفخر بهذه الهيئة الشيطانية التي تميزه عن كل البشر، هذا الشر المطلق الذي لا يفكر بفعله أي بشر " يوجد عشرون ألف نبيل. ثلاثون رئيس أساقفة. خمسة عشر ملكا...فسموا لي إن استطعتم جوتزاَ آخر....أنا الرجل الذي يزعج العلي الأعلى "[26]. وما إن يستعد (جوتز) للخروج من خيمته لإعلان الهجوم على المدينة حتى يتكلم (هنرييك) الذي ضل حتى الآن صامتا في الخيمة : " الجحيم كالسوق أيها الأبله (مشيرا إلى جوتز) إليكم أغرب المتنبئين : الإنسان الذي يظن انه الوحيد الذي يعمل الشر...في هذه الليلة تحترق المدن بالعشرات... "[27].

إن هذا التصريح الذي يفاجئ به (هنرييك) الجميع داخل الخيمة نابع في الحقيقة من أنه اكتشف والآن فقط من هو (جوتز) على الحقيقة. لقد عرف أن هذا الشرير المغرور هو في الحقيقة ضعيف، ممزق من الداخل، لقد اكتشف أن شر (جوتز) هو في الحقيقة ضد خيرهم، ضد ضعفهم، ضد الخير الموجود. الخير الذي يؤمن به ويكرز في كنيسته بأنه موجود وبأنه روح العالم، الخير الكلي. وكذلك يبدو أن (هنرييك) قد تحطمت في نفسه أيضا فكرة الخير الكلي. الخير الذي هو أصل العالم والمتمركز وراء كل فعل حتى من وراء الشر. نعم لقد أصبح يعتقد أكثر أن الخير والشر صنعة دنيوية، حتى هو نفسه وجد أنه يكره الفقراء ويقول لـ(جوتز) : " ... إذا كنت أنت الشيطان، فما أكون أنا الذي زعمت أني أحب البؤساء ثم أسلمهم لك ؟ "[28]، وهنا يلجأ

(هنرييك) إلى طعن كبرياء (جوتز). لقد أصبح يفكر مثله، أو على الأقل إنه يفهمه، أي أنه يسعى ليحطم فكرة الإنفراد بالشر، مطلق الشر ذاته الذي يحرك (جوتز) حتى الآن. إن ما يغري (جوتز) بفعل الشر هو أن لا أحد يفعله، أو لا أحد يفعل الشر الخالص الشر للشر. فشر كهذا مطلق. لا نهائي. يمنح فاعله لا نهائيته. وإذن فـ(هنرييك) سيحاول الآن أن يظهر أن العالم مليء بالشر، وليس (جوتز) وحده الشرير "... إنك تتعب نفسك...إذا كنت تريد أن تستحق الجحيم، فيكفي أن تستلقي في فراشك وتقبل بالعالم. إن العالم كله ظلم. "[29]، وهذا ما يفاجئ (جوتز) بل ويصعقه. إذا كان الكل يفعل الشر، وإن كان العالم كله مليئا بالشر، فما يكون هو؟، وماذا بقي له ليفعله ؟ :

" جوتز : إذن كل الناس يفعلون الشر ؟.

هنرييك : كلهم.

جوتز : ولم يعمل أحد الخير ؟.

هنرييك : أبدا. ".

هنا تحدث المفاجأة، الأحداث تأخذ منحى مفاجئا. إن (جوتز) سيقرر أمرا غير متوقع : "

جوتز : أراهنك على أني سأعمله (الخير)...إنها أفضل وسيلة كي أكون وحيدا. كنت مجرما وها آنذا أبدل ملابسي. أراهن على أن أغدو قديساَ. "[30]. طبعا هذا القرار مفاجئ للجميع، ولكن لا يفاجئنا الأمر ونحن نعلم أن (جوتز) لا يؤمن بالإله ولا بالشيطان ، وأن الأمر عنده مجرد تحدّ. معاندة. أن يضل وحيدا منفردا بشيء – الشر أو الخير – ليكون، ليتحقق، المهم أن يكون في مواجهة مع أحد ليتحقق وليس أفضل من الله ليكون هذا الخصم. لكن (هنرييك) يلفت نظر (جوتز) إلى أنه خسر مقدما، لأن المرء لا يفعل الخير لكي يكسب رهانا. ويوافق (جوتز) على ذلك ويقرر أن يقامر بالنرد على تحوله.

لماذا لا يختار (جوتز) أن يتحول ببساطة ؟. الحقيقة أن من يعرف(جوتز) يعرف انه يفعل ذلك " لأنه يريد أن يحرج الله "[31]. نعم إنها فرصة كبيرة لأن يباري الله نفسه، إنه سيضع مصير المدينة بين يدي الله ويجب على الله أن يقرر، أن يتحمل المسؤولية بطريقة ظاهرة، لا عن طريق ضرب الناس بعضهم ببعض. يبدأ (جوتز) ويقامر على أنه لو خسر النرد فسوف يفعل إرادة الله، سيفعل الخير ويرفع الحصار عن المدينة، أما إذا ربح فسوف يقتل الجميع. وهنا يلعب النرد دور إرادة الله، الحظ هو إرادة الله. لقد أدخل (جوتز) الله عنوة إلى الاختيار. إذا خسر (جوتز) اللعبة سوف يفعل إرادة الله، ولكن إذا ربح اللعبة فسوف يحرق (وورمس) وهذا أيضا إرادة الله/النرد. فعلا هذا إحراج للإله. ولكن خلف هذه المعضلة الأخلاقية يظهر العبث وتظهر الملهاة، بدليل أن (جوتز) يغش سراً في النرد ليخسر :" كاترين : لقد غش، رأيته، رأيته، لقد غش كي يخسر "[32]. وبذلك سيفعل الخير، سيفعل إرادة الله، ويأمر (جوتز) برفع الحصار عن المدينة. ولا نستطيع تفسير هذا الغش إلا بأن(جوتز) سيان عنده الشر أو الخير، إنه لا يحكم عليهما بل يفعلهما فقط، أو يفعل أحدهما، المهم أن يكون وحيدا في ذلك الفعل، وأن يصل بفعله ذلك إلى المطلق، يريد أن يكون الله أو الشيطان، وكلاهما عنده المطلق للخير والشر. ويعزم على فعل الخير، ولكنه يحتاج لجمهور، لآخرين حتى يكمل بهم تحققه، إلوهيته وشيطنته، يحتاج للعالم والناس كما يحتاجهما الله والشيطان ليكونا ما هما عليه، فبغير العالم

والناس لا معنى للإله ولا معنى للشيطان. لذلك يواعد (هنرييت) و(ناستي) أن يلتقوا بعد عام ويوم، ليشهدوا على تحقيقه الرهان، فعل الخير، و يعدهما أنهما سيريان حينئذ رجلا آخر تماما. سيريان قديسا.

لقد رأينا (جوتز) يرفض مشروع الخير (الانضمام إلى الفقراء) الذي عرضه عليه (ناستي)، ولكنه الآن يقبله فلماذا ؟. الحقيقة أن الخير كان في المرة الأولى غير مغر لـ(جوتز) لأنه ممكن التحقيق، لأن كل الفقراء يمثلون الخير، لأن الله نفسه مع الخير، أما وقد أصبح الخير مستحيل التحقيق كما صرّح (هنرييت) : " لقد أراد الله أن يكون الخير مستحيلا على الأرض...، الحب مستحيل. العدالة مستحيلة. حاول أن تحب قريبك، وقل لي عن النتيجة. "[33]، فإن الخير هنا هو المطلوب، هو المطلق، هو وسيلة العزلة والوحدة من جديد، هو طريق التحقق، إنه الإلوهية.

و يبدأ (جوتز) مشروعه لتحقيق الخير، إنه يريد إقامة مجتمع متساوي قائم على المحبة والأخوة خال من الملكية الشخصية. ويبدأ بتوزيع أراضيه التي حصل عليها بعد قتل أخيه (كونراد). ولكنه تناسى أن العطاء والسخاء يكون مرفوضا ولو بالخفاء. أليس هو نفسه ضحية هذا الإحسان والعطاء المغشوش ؟. لقد كان عليه أن يدرك أن العطاء بهذه الطريقة لا يصنع سوى ضحايا، ضحايا الذل والامتهان، وبالتالي سوف يصنع محتقرين له لا محبين، حيث إن مفهوم الإحسان يصنع مشوهين، منفيين عن ذواتهم وعن الآخرين، ذلك لأنهم مذلون بهذا الإحسان منذ البداية، وحين يغيب مفهوم المبادلة الأخلاقية فإننا نحصل على أمثال (جوتز)[34]. ونجد خادم (كونراد) السابق والذي أصبح خادما لـ(جوتز) الآن يجسّد هذه النتيجة للعطاء والإحسان، حيث يتبرم من هذا الحب والأخوة الزائدة عن حدّها، إذ يكره الكرم والطيبة التي يفرضها (جوتز) فرضا على أتباعه، فيقول :" كل الخدم إخوته. يقول إنه يحبنا. لقد تسلّى البارحة بان غسل قدمي...إني ألعن الحب. كان (كونراد) قاسيا شرسا، ولكن شتائمه كانت أقل إهانة من طيبة (جوتز)."[35]. هذا هو (جوتز) الذي اختار فعل الخير، يريد فرض الخير بالقوة، كما كان يفرض الشر بالقوة : " سوف يتم عمل الخير على الرغم من الجميع "[36]، لا لشيء إلا ليكون متأكدا من تحقيق الخير، وبالتالي متأكدا من تحقيق ذاته، وعليه فسوف يرغمهم على الخير. لقد شرح له (ناستي) أنه بإعطاء أراضيه للفلاحين سوف يدفع جميع الفلاحين في ألمانيا إلى الثورة على النبلاء تأثرا بفعل (جوتز) كنبيل وسيد أرض سابق، ولما كان الفلاحون على غير استعداد بعد لمواجهة قوة الأسياد بنجاح، فإنهم يتعرضون لخطر الإبادة. ولكن المسألة بالنسبة لـ(جوتز) ليست هنا : " سوف يكون الله أولا شيء "[37]، إنه لا يريد أن يفعل الخير بالتقسيط. إنه يريد أن يكسب المعركة/الرهان حالاً. إننا لا ندعي أن (جوتز) يصرح بأنه يريد أن يكون الله، ولكنه يصرح مثلا : " لقد اختارني الله لمسح خطيئتنا الأصلية "[38]، وحيث أنه يعين نفسه كأداة لله فالإغراء الإلهي ظاهر هنا، حيث أن الذي يجرؤ على القول بأنه موكل من الله ليفرض الحب على الناس إنما يحسب نفسه آخر الأمر الله ذاته، أو يمتلك نفس صلاحياته وقوته، وهنا نلاحظ أن (جوتز) قد انغمس في البطولة وفي الخيال أيضا، حيث أنه بتصعيد هذا الخير إلى المطلق يكرر نفس التمثيلية الأولى و لكن هنا بالخير، نفس التحدي لله ولكن باسم الله نفسه. إنه حين يقصر الناس على الحب فلكي يقترب من الله لكي يكون إلها بنظرهم، أو

بمعنى لآخر ليكون، هو وحده، بكليته، أن يكون الله، مختار الله. أي أن يصل في آخر الأمر إلى التوافق الكامل مع نفسه.

إن ادعاء تحقيق المطلق سواء في الشر أو الخير يمثل نزوع الكينونة لذاتها من أجل امتلاك العالم، ومن البداية لم يكن الأمر إلا هكذا بالنسبة لـ(جوتز)، وبما أن النزعة في حد ذاتها تؤول للفشل في كل مرة، فإن أفعال (جوتز) – رغبته في أن يكون الله أو الشيطان – تسقط من تلقاء ذاتها وتفقد كل صلابة. إنها في النهاية ليست سوى حب للذات، محاولة منفردة للتحقق دون الاهتمام بمصائر الآخرين، وهذا ما يفسر القصر و القوة في غصب الآخرين التي ميزت (جوتز) سواء في الشر أو الخير، حيث لم يكن (جوتز) يفعل سوى أنه يستغل الآخرين سواء في الشر أو في الخير ليحقق ذاته المشتتة.

في الحقيقة لم يكن ليكتب النجاح لمشروع (جوتز)، حيث أن الفلاحين لما قاموا بثورتهم لم يكونوا بقيادته، لأنه قد اعتزل الحروب ويحاول الآن الدعوة للمحبة، والدعوة للسلم، ويأمر أيضا أهل مدينته النموذجية بعدم الاستجابة للفلاحين وعدم مشاركتهم في الثورة، وهذا يؤدي بالفلاحين إلى تدمير المدينة متهمين (جوتز) وأهل مدينته بالأنانية والإدعاء الكاذب للسلم والمحبة، لأن رفضهم الانضمام للفلاحين يعني أنهم يوافقون النبلاء. و حين يصل إلى (جوتز) خبر تدمير مدينته المثالية على أيدي الفلاحين يزحف منسحبا إلى أجمة منزوية ليعاني وحده آلام الخيبة والانكسار. وفي هذه اللحظات المؤلمة ينتبه (جوتز) لقدوم (هنريك) الذي يخبره بأن جيش الفلاحين قد هزم. إن (هنريك) يصل الآن أيضا لأن موعد الرهان قد حل. لقد انتهت السنة واليوم. وهناك يعترف (جوتز) بالفشل. لقد فشل في رهانه، وهاهو يعاين نتيجة خيانته لأخيه أولا، وخيانته للشر، نعم لقد خان الشر في تلك الليلة وغش في النرد " لكن الشر لا يستسلم للخيانة بسهولة، وليس الخير من خرج من قرن النرد تلك الليلة، وإنما شرّ أشرّ...كنت أريد أن أكون لا إنسانيا... كنت أريد أن أدهش السماء لأتخلص من احتقار البشر... و لكن لم أكن دائما إلا ابن زنا."[39]، وهكذا يكتشف (جوتز) أنه إنما كان يفعل الشر ثم الخير لا كغاية بل كوسيلة لتقديم طبيعته أمام نفسه، أراد السرقة والقتل ليكون الشرير أمام نفسه، وأراد الخير ليكون القديس أمام نفسه، وحيث وصل الأمر إلى هذه النقطة فإن (جوتز) الآن يكتشف أنه لم يبدل جلده أبدا، بل غير لغته فقط، ولكن بقي ابن الزنا ذاته، وحيدا. لقد كان يكره الناس، ولقد أسمى هذه الكراهية حبا، لأن الحب بالغصب ليس إلاّ الكره، وكان يسمي نزعته لهدم الآخر وتخريب وجوده كرما وطيبة، حيث أن الإحسان إلى الآخر محاولة لاستعباده في الخفاء. لأنه قد غش منذ البداية متوهما أن لا أحد لا يعلم، فكان تغيّره بالأحرى مزيفا. مغشوشا هو الآخر، و (جوتز) يدرك الآن أنه كان يمارس لعبة تغيير الألقاب فقط، للشيء نفسه، محاولة ذاته الممزقة من الداخل و والمهجورة من الخارج أن تكون. لكنه يتساءل للمرة الأخيرة، وهو مازال متمسكا بأي أمل في أن يكون غير مسؤول ولو بجزء بسيط عن كل ما مضى: " يا إلهي إذا كنت تمنع عنا وسائل الخير، فلماذا منحتنا الرغبة المرّة فيه. إذا لم تسمح بأن أصبح خيّرا، فلماذا نزعت عني الرغبة في أن أكون شريرا.غريب أن لا يكون هنالك مخرج. "[40] والواقع أن (جوتز) يدرك الحقيقة ولكن لا يزال يضلل نفسه عنها، لا يزال يغش، لا يزال يحتاج إلى آخر يمنحه الحقيقة التي يدركها في نفسه، حيث الآخر يملك صفة الإقناع أكثر من الذات، والآخر هذا هو (هنريك)، الذي لا

يستطيع التمتع بانتصاره في الرهان، لأنه هو أيضا خسر، خسر إيمانه، أو على الأقل أصبح مقتنعا أن الله هجر البشر، وأن البشر وحدهم من يقررون الخير والشر. (هنرييك) الذي يدرك أن (جوتز) يعاني ذلك الهجر الآن ولكنه لا يزال مشوشا، لا يزال يدعي أمام (هنرييك) أنه يسير بخطة الله التي ظهرت لهم جميعا ليلة الرهان، لا يزال يبحث عن مصدر كل الأحداث السابقة، حيث أنه لم يعد يميز بين ما إرادته وبين إرادة الله في كل ما جرى. (هنرييك) الذي يلعب دور القاضي الآن يهزأ من (جوتز) الذي يتظاهر بمخاطبة الله :

" هنرييك : لماذا تتظاهر بمخاطبته ؟ أنت تعلم أنه لن يجيبك.

جوتز : ولم هذا الصمت ؟.

هنرييك : لأنه ليس لك قيمة عنده. عذّب الضعفاء أو استشهد. قبّل شفتي عشيقة أو وجنتي أبرص. مت حرمانا أو لذة. لن يهتم الله بكل ذلك.

جوتز : من له قيمة إذن ؟

هنرييك : لا أحد. الإنسان عدم. لا تتظاهر بالدهشة : لقد عرفت ذلك دائما وكنت تعرفه عندما رأيت النرد و إلا هل كنت غششت. لقد غششت ورأتك كاترين : لقد رفعت صوتك حتى يعلو على صمت الله. إنك أنت الذي تعطي الأوامر وتزعم أنك تتلقاها "[41].

إن (هنرييك) يوضح مسألة هامة جداَ، وهي مسألة وهم التلقي، سواء كانت من الله عن طريق الوحي أو عن طريق أحكام مسبقة وعامة تحكم الأخلاق الإنسانية، ولذلك يغدو المخرج الذي يحاول (جوتز) العثور عليه واضحا الآن : يجب أن يموت الله ليحيا الإنسان. حتى يكون كل شيء جرى سابقا هو حقيقة، يجب أن يكون الله كذبة. وقد تكون هذه الحقيقة أنصع وأوضح الآن لأنها كانت مشوشة ومفجعة أثناء صراع الإنسان ليكون. كانت حقيقة يعيشها الإنسان – جوتز على الخصوص-، أما الآن ستكون خبرا مفرحا لأنها حقيقة معاشة وحقيقة مدركة أيضا، أي أن الإدراك الواضح هو ما سيحولها إلى خلاص بدل الفاجعة.

والآن لم يبق لـ(جوتز) سوى الاعتراف بكل ما قلناه. ولكن لا بد أن يخاطب الله نفسه، وفي هذا إشارة من سارتر إلى أهمية الجمهور بالنسبة للفرد لتوكيد الحقيقة التي يعرفها الفرد. لا بد من جمهور لائق، ولن يجد (جوتز) سوى الله نفسه ليخاطبه كآخر، ولكنه آخر من نوع فريد، إنه غاية وليس متعينا مثل الأفراد، لأنه أصبح الآن الحلم وليس الحقيقة.

ويلخص سارتر الحقيقة التي يحصّلها (جوتز) في هذا النص الذي فضلنا كتابته كاملا على طوله، وذلك لأنه مزيج رائع من الاكتشاف للمعنى الحقيقي للفرد في العالم، و اكتشاف مسؤولية الإنسان عن العالم وعن كونه هو مصدر أحكام الخير والشر، فيقول (جوتز) :

" كان دعائي من أجل أن احصل على إشارة، أرسلت إلى السماء رسائلي، و لم يصلني أي جواب. في كل لحظة، أسأل نفسي ماذا أكون أنا في نظر الرب؟ أنا أعرف الجواب الآن، لاشيء. الرب لا يراني، الرب لا يسمعني، الرب لا يعرفني. هل ترى هذا الفراغ؟ هذا الفراغ هو الرب. هل ترى هذه الحفرة في الأرض؟ هذه الحفرة هي الرب. الصمت هو الرب. اللاوجود هو الرب، التخلي عن البشر هو الرب. ما كان، هو أنا وحدي، أنا وحدي (بنفسي) اخترت الشر و اخترعت الخير. أنا كنت شريرا و كذلك صنعت المعجزات

(الخيّرة). أنا بنفسي، أتهم نفسي و أنا بنفسي أستطيع أن أطلق حكم البراءة على نفسي، أنا الإنسان. إذا كان الرب موجودا، فإن الإنسان هو لاشيء. إذا كان الإنسان موجودا يا هنرييك، فإني سأعرفك بفراهة ضخمة : إن الله غير موجود...إنه غير موجود. يا للفرح. يا لدموع الفرح. إني أخلص جميع جنسنا. لا سماء ولا جحيم. لا شيء سوى الأرض. "[42].

إن هذا الخلاص سيؤدي بـ(جوتز) إلى التغيير، يؤدي به إلى التوجه إلى الإنسان، إلى الناس، لأنه بعد هذه البشارة سيحس لأول مرة أنه متضامن مع الناس، وأنه مبحر معهم لذلك لم يفرح لمعرفته بعدم وجود الله بقدر إحساسه أنه خلّص الناس من فكرة الجحيم والحساب والعقاب، وهنا سيصبح (جوتز) لأول مرة إنسانيا، سيمثل الإلحاد بطابعه الإنساني، ذلك الإلحاد من أجل البشر والذي يدفع للتوحد والتضامن مع البشر، لأنه لم يعد هناك سوى البشر، إنه سيبدأ من جديد. إنه يريد الآن أن يكون بين الناس ومعهم، لذلك يعود (جوتز) إلى جيش (ناستي) المتبقي ويطلب منه أن يكون في الجيش :

" أريد أن أكون إنسانا بين الناس. أريد بشرا في كل مكان. فوقي وحولي. أريد أن يغطوا عني هذه السماء الفارغة... لقد قتلت الله لأنه فصلني عن البشر "[43]، أي أنه يريد أن يتخلص من الهجر بالعمل والالتزام. وعلينا هنا أن نلاحظ أن سارتر يشير إلى الإنسانية التي سوف تزيد تلقائيا عند البشر حين يغيب الإله من أفقها، وذلك ما يميز الإلحاد من وجهة النظر السارترية : الإنسانية. وهذا ما دافع عنه سارتر من قبل في كتابه المعنون بـ(الوجودية نزعة إنسانية 1946). وليس أخطر على هذه الرابطة من فكرة الدين أو الإله، حيث أن التعامل بين البشر لا يحتاج تعاليم فوقية، و فوقيتها هذه هي سبب تنافرها مع الواقع الإنساني، تنافرها مع الذاتية والحرية والتعدد الذي يميز البشر.

وتنتهي المسرحية بأن يعود (جوتز) كقائد للفلاحين وهو مستعد لقتل كل من يعصي الأوامر. وفعلا، فإن أحد القادة يعترض على قيادة (جوتز) للجيش فيطعنه (جوتز) في الحال، ويقول لـ(ناستي) وقد قرر الآن ما سيكونه : " ها هو ذا حكم الإنسان قد بدأ. هيا يا (ناستي) سأكون جلادا ...سوف أخيفهم بما أنه ليست لدي طريقة أخرى لأحبهم. سوف أعطيهم الأوامر بما أنه ليست لدي وسيلة أخرى للطاعة. سأضل وحيدا بصحبة هذه السماء الفارغة من فوق رأسي بما أنه ليست لدي وسيلة أخرى لأكون مع الجميع. علي أن أخوض هذه الحرب وسأخوضها - النهاية-. "[44]، وهنا أدرك (جوتز) أنه عليه أن يقرر هل يحب الناس أو يكرههم، فقرر أن يخيفهم، وقرر أن يكون صارما وقاسيا لأنه لا يستطيع أن يكون غير ذلك. إن الله قد مات وعليه أن يكون ما يتطلبه الوضع الآن، والوضع يتطلب قائدا قاسيا وصارما للثورة وسيكون ذلك القائد لأنه في الحقيقة لا يعرف سوى هذه الطريقة في القيادة والحياة.

إن مسرحية (الشيطان والإله الطيب) من ذلك النوع من المسرحيات التي تحمل مواضيع عدة، لأنها تعكس الكثير من آراء سارتر الفلسفية والسياسية، فهي إلى جانبها المناهض للمسيحية وخاصة في الجانب المفاهيمي لها، حيث أنها تبرز اللاجدوى من وراء مفهوم الإحسان و مفهوم إنكار الذات لتحسين النفس، بل إنها تكشف أن هذه الأفعال ضد ما هو اجتماعي، ذلك لأن الإحسان المسيحي يذل بطريقة غير مباشرة الذين ينالون هذا الإحسان، ويجعل الذين يمارسون هذا الإحسان غرباء عن زملائهم كما حدث لـ(جوتز)،

وذلك " لأن هذا يقضي على إمكانية التعامل الاجتماعي من خلال التبادل الأخلاقي والعملي "[45]. وتعكس المسرحية من جهة أخرى تطور سارتر السياسي، حيث أنه أصبح يؤمن بضرورة الانحياز لجانب الطبقات المضطهدة لتحسين أوضاعها ضد البرجوازية، وهذا ما حمّس سارتر للفكر الاشتراكي، و رأى في الاتجاه الاشتراكي الخلاص للإنسان من الحرية المرعبة والمجانية وذلك بالالتزام السياسي في التضامن مع الطبقات المستضعفة[46]، ويُظهر سارتر ذلك في الخطوة الأخيرة التي قام بها (جوتز) حين قرر أن ينضم للفلاحين في للاشتراك في ثورتهم.

وسارتر نفسه بعد عام من تأليف مسرحية (الشيطان والإله الطيب) أعلن أن تأييده للحزب الشيوعي هو أكبر خدمة للجماهير، لأنه الاتجاه الوحيد في أوروبا الذي يرى فيه سارتر ممثلا للمطالب الإنسانية والاجتماعية العادلة، وعلينا أن نفهم أن الطابع الثوري الذي دعت إليه الفلسفة الاشتراكية هو ما جذب سارتر. لقد عرف سارتر عام 1945 الوجودية بأنها : " محاولة استخلاص كل النتائج الممكن استخلاصها من موقف إلحادي منطقي مع نفسه "[47]، وتمثل مسرحية (الشيطان والإله الطيب) التجسيد الواقعي لوجودية سارتر الملحدة، وبما أن الواقع الاجتماعي هو الواقع الوجودي الوحيد الذي تتجسّد فيه كل هذه الفلسفة، فإن في رأي سارتر – وهذه هي رسالة المسرحية - أن الطريقة الوحيدة لوضع هذا الإلحاد الوجودي موضع الممارسة هو : التمرّد الاجتماعي، ليس التمرّد الفوضوي الفردي، وإنما التمرّد المنظم الذي يعمل على تحقيق النفع العام، وعليه تلخّص المسرحية مبدأ هاما وجوهريا وهو : " إذا كان الله قد مات فإن الشيء الوحيد الباقي هو خدمة الناس "[48]، ولكن هنا علينا أن نوضح أن تأييد سارتر للحزب الشيوعي الفرنسي كان على مستوى المطالب الاجتماعية فقط، لأنه انتقد بشدّة فيما بعد السوفيات لقمعهم حركة الاستقلال المجرية وذلك ما سمي بـ(أزمة المجر 1956)، لذلك يظهر سارتر إنسانيا فقط، مع الإنسان ضد كل النظم الديكتاتورية والكهنوتية.

الحواشي :

[1]- جان بول سارتر، مسرحية الشيطان والإله الطيب، تر : سامي الجندي، المكتب التجاري، بيروت، لبنان، ط1، بدون تاريخ ص 21-22.

[2]- نفس المصدر، ص 23.

[3]- نفس المصدر، ص 23

[4]- مجاهد عبد المنعم مجاهد، سارتر عاصفة على العصر، مرجع سابق. ص 257.

[5]- فرنسيس جانسون، سارتر بقلمه، تر : خليل صابات ، منشورات نزار قباني، بيروت، لبنان، 1967. ص 85.

[6]- سارتر، الشيطان والإله الطيب، مصدر سابق. ص 83-84. والتسويد من عندنا.

[7]- نفس المصدر. ص 62.

[8]- نفس المصدر. ص 59.

[9]- فرنسيس جانسون، سارتر بقلمه، مرجع سابق. ص 111.

[10]- سارتر، الشيطان والإله الطيب، مصدر سابق . ص 61.

[11]- نفس المصدر. ص 88.

[12]- نفس المصدر. ص 110.

[13]- المصدر السابق. ص60.

[14]- فرنسيس جانسون، سارتر بقلمه، مرجع سابق. ص 90.

[15]- سارتر، الشيطان والإله الطيب، مصدر سابق. ص 59-60.

[16]- فرنسيس جانسون، سارتر بقلمه، مرجع سابق. ص 90.

[17]- موريس كرانستون، سارتر بين الفلسفة والأدب، تر : مجاهد عبد المنعم مجاهد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، 1981. ص 173.

[18]- سارتر، الشيطان والإله الطيب، مصدر سابق. ص 99.

[19]- جان بول سارتر، الكلمات، تر : خليل صابات، دار شرقيات، القاهرة، مصر، ط2، 1993. ص 17.

[20]- نقلا عن كتاب : فرنسيس جانسون، سارتر بقلمه، مرجع سابق . ص 177.

[21]- سارتر، الشيطان والإله الطيب، مصدر سابق. ص 55. والتسويد من عندنا.

[22]- فرنسيس جانسون، سارتر بقلمه، مرجع سابق، ص 88. والتسويد من عندنا .

[23]- سارتر، الشيطان والإله الطيب، مصدر سابق. ص 95- 96.

[24]- فرنسيس جانسون، سارتر بقلمه، مرجع سابق. ص 86.

[25]- سارتر، الشيطان والإله الطيب، مصدر سابق. ص 106.

[26]- نفس المصدر. ص 108.

[27]- نفس المصدر. ص 108.

[28]- نفس المصدر. ص 108.

[29]- نفس المصدر. ص 110.

[30]- سارتر، الشيطان والإله الطيب، مصدر سابق. ص 111.

[31]- فرنسيس جانسون، سارتر بقلمه، مرجع سابق. ص 88.

[32]- سارتر، الشيطان والإله الطيب، مصدر سابق. ص 114.

[33]- نفس المصدر. ص 109.

[34]- مجاهد عبد المنعم مجاهد، سارتر عاصفة على العصر، مرجع سابق. ص 265.

[35]- سارتر، الشيطان والإله الطيب، مصدر سابق. ص 119.

[36]- نفس المصدر. ص 124.

[37]- فرنسيس جانسون، سارتر بقلمه، مرجع سابق. ص 99.

[38]- نفس المرجع . ص 99.

[39]- سارتر، الشيطان والإله الطيب، مصدر سابق. ص 239. والتسويد من عندنا.

[40]- نفس المصدر. ص 241.

[41]- نفس المصدر. ص 241-242.

[42]- نفس المصدر. ص 242-243.

[43]- نفس المصدر. ص 251-252.

[44]- نفس المصدر. ص 256.

[45]- مجاهد عبد المنعم مجاهد، سارتر عاصفة على العصر، مرجع سابق. ص 265.

[46]- نفس المرجع. ص 266.

[47]- سارتر، الوجودية مذهب إنساني، مصدر سابق. ص 67.

[48]- مجاهد عبد المنعم مجاهد، سارتر عاصفة على العصر، مرجع سابق. ص 266.